

عرض وتقديم: مصطفى عبدالشافي مصطفى

في القرن الثالث الهجري كانت العلوم الاسلامية قد اقتربت من النضج فقد وضعت الأسس الثابتة لمذاهب الفقه وألفت الكتب الصحاح في الحديث وجمعت اللغة من أفواه الأعراب وصنفت كتب السيرة والمغازي والفتوح واتسعت آفاق المعرفة عند العلماء فكان المشتغل باللغة والنحو عالما بالحديث ووجوه التأويل ، والشاعر يأخذ بنصيب من اللغة والنحو والتصريف والفقيه يحفظ الشعر والمثل ويروي الحديث والخبر

ويشارك في صنوف الآداب .
ولم تعد حلقات الدروس ومجالس العلماء ومدارسة العلوم وصناعة التأليف موقوفة على الكوفة والبصرة وبغداد بل امتدت شرقا إلى فارس وخراسان وما وراء النهر وسارت غربا إلى الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس . وفي هذه الحقبة من الزمن بزغ نجم المحدث الفقيه الجامع لأشتات العلوم أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

نشأته وثقافته :

فقه العلم صبيا ورحل في سبيله يافعا لم يبلغ مبلغ الرجال ، وطالع صنوف الكتب ولم يلبث أن أصبح اماما وصاحب مذهب . كان مولده بآمل طبرستان في سنة ٢٢٥ هـ تقريبا .
يقول الطبرى : (حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت وأنا ابن ثماني سنين ، وكتبت الحديث وانا ابن تسع) .

كان ابوه ورعا تقيا ، دفع بابنه إلى الرحلة في سبيل العلم فرحل عن مسقط رأسه (آمل طبرستان) ولم تبلغ سنه الثانية عشرة ... وكفاه مؤنة العيش ومعاناة الرزق ، فكان يرسل إليه نفقته حيث حل ، فصانه بذلك عن عطايا الخلفاء والملوك والوزراء ، وزهده في مناصب الدولة ، وأعانه على الانقطاع إلى المدارسة والرواية والتصنيف .

كان أول ما رحل إلى (الري) وما جاورها من البلاد ، فأخذ عن شيوخها ، ودرس فقه العراق على أبى مقاتل ، وكتب عن أحمد بن حماد الدولابى كتاب (المبتدأ) وأخذ مغازي ابن اسحاق عن سلمة بن الفضل وعليه بنى تاريخه فيما بعد ، وترامت إلى الناس أنباء أحمد بن حنبل فعزم أبو جعفر على الرحلة إليه في بغداد ليأخذ عنه ، ولم يكد يصل إليها حتى علم بوفاته ، فعدل عن الاقامة فيها ، ثم رحل إلى الكوفة فكتب عن هناد بن السرى وإسماعيل ابن موسى الحديث ، وأخذ عن سليمان بن خلاد الطلحى القراءات ، ولقي فيها أبا كريب محمد بن العلاء الهمذاني وكان عالم عصره ، ويقال : إنه سمع من أبي كريب أكثر من مائة ألف حديث ، ثم عاد أبو جعفر إلى مدينة السلام وأخذ في مدارسة علوم القرآن ، ثم جنح إلى دراسة فقه الشافعي ، وكان هناك الحسن بن محمد الصباح وأبو سعيد الاصطخرى من أئمة الشافعية ولم يلبث ان اتخذه مذهبا وأفتى به سنوات .

وكان يقيم بمصر على عصره بقية من أصحاب الشافعى :
اسماعيل بن ابراهيم المزني ، الربيع ابن سليمان ، محمد بن عبدالله بن الحكم ، وأخوه عبدالرحمن ، فدعته نفسه الى اللقاء بهم والرحلة إليهم ، وكان أول من لقيه بها أبو الحسن السراج المصري ، وكان أديبا متصرفا في فنون الآداب ، وكل من

دخل الفسطاط من أهل العلم يتلقاه ويتعرض له وكان ذلك سنة (٢٥٣) هجرية . وحينما لقى أبا جعفر ساءله عن فنون من الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر فوجده عالما في كل ما سأل آخذا من كل علم بنصيب وافر . وطالت أيامه بمصر سنوات ذهب في اثنائها إلى الشام ثم عاد فأخذ من فقه الشافعي عن الربيع والمزنى ومحمد ابن عبدالله بن الحكم وعبدالرحمن ابن الحكم .

ومن فقه مالك عن تلاميذ ابن وهب ... وفي مصر أيضا لقى يونس بن عبد الأعلى الصدفي شيخ الإقراء بها فأخذ عنه قراءة حمزة وورش ثم عاوده الحنين الى بغداد فعاد إليها بعد رحلة طويلة ، وعزم على أن ينقطع للدرس والتأليف . نقل ابن عساكر أنه : « لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى ابي جعفر بمال كثير فامتنع من قبوله وعرض عليه القضاء فأبى وعرض عليه المظالم فامتنع ، فعاتبه أصحابه وقالوا له : لك في هذا ثواب ، وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم ، وباكروه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال : قد كنت أظن لو رغبت ذلك لنهيتموني عنه ولامهم » .

ثم ابتنى لنفسه دارا برحبة يعقوب في بغداد وزع فيها نفسه بين العبادة والقراءة والإملاء والتصنيف وعاش بها رضي النفس مهيبا من الخلفاء والولاة إلى أن مات يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة (٣١٠) هجرية . ودفن في داره .

قال الخطيب في تاريخ بغداد : (اجتمع على جنازته من لا يحصي عددهم إلا الله وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا ورثاه خلق كثير من أهل الدين والآدب) .

آثاره العلمية :

هذا وقد جال ابن جرير الطبري في نواحي كل فن وضرب فيها جميعها بسهم حتى أصبح إمام عصره .

قال عبدالعزيز الطبرى : (كان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف الا الفقه ، وكالنحوي الذي لا يعرف الا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالما بالعبادات ، جامعا للعلوم ، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها) .

ولكن كان اكثر ما اشتهر به من هذه العلوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات .

اما الفقه فقد درس المذاهب جميعها ، وفقه الشافعي على الخصوص ، واتخذه مذهبا له وأفتى به في بغداد عشر سنين .

التفسير :

أما التفسير فإنه قد أفضى بعلمه فيه إلى كتابه الكبير (جامع البيان في تفسير القرآن)

قال ابو جعفر : (استخرت الله تعالى في عمل كتاب التفسير وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل ان أعمله فأعانني) .

وقد جعله ثلاثين جزءا بعدد أجزاء القرآن الكريم وقدم له برسالة في بيان الإعجاز وطرق القراءات وتفسير أسماء السور ثم تلاها بتأويل القرآن حرفا حرفا فذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين ، وكلام اهل الاعراب من الكوفيين والبصريين وجملا من القراءات واختلاف القراء فيما فيه من المصادر واللغات والجمع والتثنية .

والكلام على ناسخه ومنسوخه وأحكام القرآن والخلاف فيه والرد على من كان من اهل النظر فيما تكلم به أهل البدع والرد عليهم ، على مذاهب اهل الإثبات ومبتغي السنن وذكر فيه من كتب التفسير المصنفة الموثوقة عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك بن مزاحم ، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به . واشتهر هذا التفسير حتى روي عن أبي حامد الاسفراييني الفقيه انه قال : (لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا) .

الحديث :

أما الحديث فقد عده الذهبي من رجال الطبقة السادسة ، وذكر النووي في (كتاب تهذيب الاسماء واللغات) أنه في طبقة الترمذي والنسائي .

ومن أشهر ما صنف فيه كتاب (تهذيب الآثار) .

قال ابن عساكر : (وهو من عجائب كتبه ابتدأه بما رواه ابوبكر الصديق مما صح عنده بسنده وتكلم على كل حديث منه وما فيه من المعاني والغريب وكان قصده فيه أن يأتي بكل ما يصح من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

القراءات :

وقد تلقى حروف القرآن على شيوخ الإقراء ببغداد والكوفة والشام ومصر وأخذ بقراءة حمزة تلقاها عن يونس ابن عبد الأعلى بمصر كما أخذ عليه قراءة ورش ، ثم لم يلبث أن اتخذ لنفسه قراءة لم يخرج بها عن المشهور كما فعل في الفقه والتفسير ووضع كتابه المسمى (بالفصل بين القراءات) ذكر فيه اختلاف القراء في حروف القرآن .

وإلى جانب علمه بالقراءة كان حسن التلاوة حسن الترتيل ، سمعه ابوبكر ابن مجاهد وهو في طريقه الى المسجد لصلاة التراويح ، يقرأ سورة (الرحمن) ، فقال : (ما ظننت ان الله تعالى خلق بشرا يحسن هذه القراءة) .

وكان أيضا شاعرا ، ذكره القفطي في (المحمدين من الشعراء) وقال : (كان له رحمه الله شعر فوق شعر العلماء) .

وأورد له :

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي
وأستغني فيستغني صديقي
حيائى حافظ لي ماء وجهي
ورفقي في مرافقتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي
لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وقد اختار في تاريخه (تاريخ الرسل والملوك) من عيون الشعر

ومنخول الخطب والرسائل والوصايا ما يشير إلى طول باعه في هذا الشأن وحسن ذوقه .

مؤلفاته

١ ـ تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)

يعد أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب ، أقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائى شامل ، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة . وقد أكمل ما قام به المؤرخون قبله ، كاليعقوبي ، والبلاذرى ، والواقدى ، وابن سعد ، ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون .

وترجع قيمة تاريخ الطبرى إلى أنه قد استطاع ان يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ونصوص الشعر والخطب والعهود . ويقع الكتاب في عشرة أجزاء تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم وقد صدر عن دار المعارف المصرية .

هذا وقد ترجم الكتاب الى الفارسية ثم نقل من الفارسية إلى التركية كما ترجم من الفارسية إلى الفرنسية في أربع مجلدات ونقلت ايضا إلى بعض اللغات اللاتينية .

٢ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن

وهو أجل التفاسير على الإطلاق وأعظمها . أملاه في بغداد من سنة (٢٨٣) إلى (٢٩٠) هجرية.

قال ابن النديم : (وقد اختصره جماعة منهم ابوبكر بن الاخشيد وغيره) .

وترجم إلى الفارسية والتركية . وقد قام الأستاذ محمود شاكر بتحقيقه ونشره في طبعة علمية محررة بدار المعارف بالقاهرة . ويقع الكتاب في ثلاثين جزءا بعدد أجزاء القرآن الكريم .

٣ ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت من الأخبار

ابتدأه بما رواه ابوبكر مما صح عنه بسنده وتكلم عن علة كل حديث منه وطرقه وما فيه من الفقه والمعنى والغريب . نقل ياقوت عن أبي بكر بن كامل قال : (لم ار بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء منه) .

٤ ـ آداب المناسك

قال ابن عساكر : (هو لما يحتاج إليه الحاج من يوم خروجه وما يحتاج إليه من الاتمام لابتداء سفره وما يدعو إليه ربه عند ركوبه ونزوله ومعاينته المنازل والمشاهد إلى انقضاء حجه) .

٥ ـ آداب النفوس

قال ابن عساكر : (عمله على ما ينوب الانسان من العرائض في جميع اجزاء جسده ، فبدأ بما ينوب القلب واللسان والبصر والسمع على أن يأتي بجميع الأعضاء ، وما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك وعن الصحابة والتابعين ، ويذكر كلام المتصوفة وما حكى من أفعالهم

وإيضاح الصواب في ذلك) .

٦ ـ اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الاسلام

قصد به ذكر أقوال الفقهاء وهم : مالك ، والأوزاعى ، والثورى ، والشافعى ، وأبو حنيفة ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وابراهيم بن خالد .

٧ ـ الجامع في القراءات

٨ ـ حديث الطير

قال ابن كثير : (رأيت له كتابا جمع فيه حديث الطير) .

٩ ـ الخفيف في الفقه

قال ياقوت : (ومن جياد كتبه كتابه المعروف بكتاب الخفيف في أحكام شرائع الاسلام) .

١٠ ـ ذيل المذيل

قال ياقوت : ومنها كتابه المسمى (ذيل المذيل) المشتمل على تاريخ من قتل او مات من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حياته او بعده على ترتيب الأقرب فالأقرب منه) .

١١ ـ لطيف القول في أحكام شرائع الاسلام

قال ياقوت : (هو مجموع مذهبه الذي يعول عليه جميع أصحابه وهو من أنفس كتبه وكتب الفقهاء وأفضل أمهات المذاهب) .

١٢ ـ البصير في معالم الدين

١٣ ـ الرد على الحرقوصية

١٤ ـ الرد على ذي الأسفار

١٥ ـ صريح السنة

ذكره ابن عساكر باسم (شرح السنة) .

١٦ ـ طرق الحديث

١٧ ـ عبارة الرؤيا

ذكره ياقوت في معجم الأدباء . جمع فيه احاديث ومات ولم يتمه .

١٨ ـ كتاب العدد والتنزيل

١٩ ـ مختصر الفرائض

٢٠ ـ كتاب المسترشد

٢١ ـ المسند المجرد

٢٢ ـ كتاب الوقف

٢٣ ـ كتاب الفضائل

٢٤ ـ بسيط القول في أحكام شرائع الاسلام .

٢٥ ـ الرد على ابن عبدالحكم على مالك

هذا عن مؤلفاته كما ذكرت المصادر التي نقلنا عنها ، ولعل ابن جرير الطبرى قدم للمكتبة العربية والاسلامية هذا الكم فرحم الله محمد ابن جرير الطبري بما قدم من خير للمسلمين. ولعلنا نعود الى هذا التراث فنتدارسه ، ورحم الله ذلك المحدث الفقيه الجامع لأشتات المعارف والعلوم .

